أهمية الوقف في توجيه دلالة القرآن

الدكتور عبد العزيز التزكيني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض
مراكش، المغرب

ملخص

يهدف البحث إلى بيان العناية التي أولاها الدارسون القدامى لبعض الظواهر المصاحبة للغة (paralinguistique)؛ لوعيهم بأن عمليتي الفَهْمِ والإفْهَامِ لن تحصلا بالكيفية المطلوبة إلا إذا كان المتكلم متمكنا من بعض آليات التواصل؛ ومن أهمها القدرة على مناسبة تنغيم الصوت مع المواقف المراد تبليغها، والتمكن من معرفة المواطن التي يَتَوجَّبُ فيها الوقف، والتي يُستقبح فيها. ونظرا لأهمية الوقف (pause) في توضيح الخطاب خصَّهُ المحدثون أيضا بعناية خاصة وعدّوه من أهم الظواهر المصاحبة للغة.

ومن أهمِّ النتائج المتوصل إليها أن للوقف إسهام واضح في الكشف عن معاني القرآن، وكذا في خلق إيقاع موسيقي تستلذه الآذان.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات.، الخطاب.، الوقف.، الصوت.

Abstract

It is an evidence that the ancient Arabs were aware of the role of the paralinguistic phenomena in the act of conveying the message. Their awareness of the language need for such paralinguistic features, has driven them to give special attention to the phenomena and study the Pause (Caesura) الوقف as part of 'the Pause and Initiation research' (الوقف والابتداء مبحث). Since this area of research is a significant element in the construction of any message, modern researchers, also, considered the paralinguistic features as a field of focus.

The aim of this paper entitled is to study the Pause and highlight its importance in determining the meanings of the Qur'an verses and its contribution to the message clarification.

Key words: Linguistics; Message; Pause/Caesura; Sound.

مقدمة:

دفع الإيمان بشفهيَّة الثقافة العربية العلماءَ والباحثين القدامى إلى الاهتمام بالجوانب المساعدة على تقريب المعاني من المتلقيين للخطاب منذ بدايات التأليف. وأيقنوا أن التأثير في المُستمِع للقصائدِ الشعريّةِ أو للخطب بمختلف أنواعهما لن يتِمَّ إلا بإتقان بعض أدوات التواصل وآلياته؛ ولعلَّ من أهمّها القدرة على مناسبة تنغيم الصوت وتكييفِهِ مع المواقف المُراد الحديث عنها. ما يُثبت ويؤكد أن القدامى كانوا على دراية بدور بعض الظواهر المصاحبة للغة (paralinguistique) في تبليغ الخطاب.

وقد قَادَهم وعيهم بأهمية الظواهر المصاحبة للغة في إفهام المتلقي والتأثير فيه إلى دراسة الوقف (pause) ضمن مبحث جليل عُرف باسم الوقف والابتداء. ونظرا لدوره الهام وإسهامه البيِّن في أنجاح عمليات التواصل؛ خصَّه المحدثون أيضا بعناية خاصة، واعتبره من أبرز عناصر الظواهر المصاحبة للغة.

يهدف البحث المعنون بـــ "أهمية الوقف في توجيه دلالة القرآن"، إلى دراسة الوقف وتبيان أهميته في تحديد معاني آي القرآن الكريم. وذلك بالإجابة على الأسئلة الآتية:

- ما الوقف، وما دوره في توجيه الدلالة؟
- هل يسهم في خلق إيقاع موسيقي؟
- كيف تعامل الدرس اللساني مع ظاهرة الوقف؟

1- التعريف اللغوي والاصطلاحي للوقف:

أ- التعريف اللغوي

تتميز مادة (و، ق، ف) في المعاجم العربية بتعدد دلالاتها وتنوعها، على الرغم من كونها ترجع إلى أصل واحد. يقول ابن فارس (ت395): "الواو والقاف والفاء، أصل واحد يدل على تمكث في الشيء"1. والوقف "مصدر قولك وَقَفْتُ الدابة ووقفت الكلمة وقفا"2، ويرد فعل وقف لازما ومتعديا، ف" إذا كان بمعنى (حبس) و(منع) فهو متعد ومصدره الوقف، وأما اللازم فمصدره الوقوف"3. كما جاءت كلمة الوقف في اللغة بمعان متعددة، من أهمها الحبس4، ومن ذلك قولهم: "وقفت الدار على المساكين وقفا"5 أي حبستها.

ومن معانيها كذلك السكوت، يقال: "وقف القارئ على الكلمة وقوفا، ووَقف الكلمة وقْفا. ووقَّف القارئ توقيفا: علمته مواضع الوقوف"6. وهذا المعنى هو مدار الحديث في هذه الدراسة.

ب- التعريف الاصطلاحي:

إن الغنى الدلالي الذي يتسم به المعنى اللغوي للوقف، يقابله أيضا الغنى الاصطلاحي؛ إذ عرف مصطلح الوقف تعاريف متعددة ومتباينة دقة وعمقا. وبغية تبين هذا الأمر نورد ما ذهب إليه كل من ابن الحاجب(646ه) والأشموني(ق 11) وابن الجزري (833ه) في تعريفهم للوقف.

فابن الحاجب عرفه بقوله: " قطع الكلمة عما بعدها"7. وفي نفس الاتجاه يذهب الأشموني؛ بحيث اعتبر الوقف هو "قطع الصوت آخر الكلمة زمنا ما، أو هو قطع الكلمة عما بعدها"8. وهو بذلك لا يخالف تعريف ابن

الحاجب إلا في إدخال عنصر الزمن في تحديد الوقف. وخلافا لذلك يرى ابن الجزري أنه"عبارة عن قطع الصوت زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة؛ إما بما يلي الحرف الموقوف عليه، أو بما قبله لا بنية الإعراض"9.

يتضح لنا من خلال هذه النصوص الثلاثة أن التعريفين الأولين يتسمان بالشساعة، ويفتقدان إلى الدقة الاصطلاحية؛ إذ ليس فيهما التفريق بين السكت والوقف والقطع، بخلاف تعريف ابن الجزري الدال على فهم وتمثل وإدراك للمصطلحات السالفة الذكر؛ إذ السكت عنده عبارة عن وقف بدون تنفس، أما الوقف فعبارة عن الوقف بتنفس، في حين يحصل القطع عند تمام معنى الكلام.

2- علاقة الوقف بالدلالة عند علماء العربية

تنبه علماء العربية بمختلف مشاربهم وتباين أزمانهم؛ قراء ومفسرين، بلاغيين ولغويين، إلى أهمية علم الوقف والابتداء في الإبانة عن المعاني وتجليتها، فاعتنوا به عناية خاصة، وأفردوا له مؤلفات كاملة، وفصولا جليلة أثبتوا من خلالها أهميته في توجيه المعنى والتأثير عليه.

والذي يؤكد هذا الكلام وجود سند له في أبحاث علمائنا من خلال نصوص صريحة وواضحة تجل عن العد والحصر ومن بينها؛ ما أورده علم الدين السخاوي (643 ه) بقوله: "ففي معرفة الوقف والابتداء الذي دونه العلماء تبيين معاني القرآن العظيم، وتعريف مقاصده، وإظهار فوائده، وبه يتهيَّأ الغوص على درره وفوائده، فإن كان هذا بدعة فنعمت البدعة هذه"10. ويضيف صاحب لطائف الإشارات(923ه) معززا هذا الرأي، بقوله: "ولا مرية أن بمعرفتهما تظهر معاني التنزيل، وتعرف مقاصده، وتستعد القوة المفكرة للغوص في بحر معانيه، على درر فوائده"11.

وعليه؛ ففهم دقائق التنزيل وكشف إعجازه متوقف على معرفة وإتقان علم الوقف والابتداء، إذ بفضله يعلم "الفرق بين المعنيين المختلفين، والقصتين المتنافيتين، والآيتين المتناقضتين، والحكمين المتقاربين، وبين الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفسَّر، والمحكم والمتشابه، ويُمَيّز بين الحلال والحرام، وبين ما يقتضي الرحمة والعذاب"12.

ومما لا مشاحَّ فيه أن مراعاة الوقف الصحيح والابتداء السليم، يحافظ على سلامة وقوة الخطاب الإلهي، ويوجهه الوجهة المقصودة. بيد أنه بانتفاء هذا المعطى ينتفي المراد والمقصد الذي أنزل من أجله. يقول الهذلي(465ه): "كتب الوقف والابتداء التي تعنى ببيان مواضع الوقف والابتداء لقارئ القرآن، لكي لا يقع في المحظور، ويصرف دلالات الآيات الكريمة عن غير ما وضعت له"13. وإلى الأمر نفسه أشار الزركشي(794ه) في معرض حديثه عن منزلة علم الوقف والابتداء، إذ يقول: "هو فن جليل، وبه يعرَف كيف أداء القرآن (...)، وبه تتبيَّن معاني الآيات، ويؤمن الاحترازُ عن الوقوع في المشكلات"14.

يتبين من خلال ما سبق، وعي علماء الأمة بأهمية علم الوقف والابتداء، في توجيه دلالات آي القرآن الوجهة الصحيحة، وتوصلهم إلى أن عدم مراعاة الوقف الصحيح يذهب المقصد والغاية المرجوة؛ ولذلك "ليس كل ما يتعسفه بعض المعربين أو يتكلفه بعض القراء، أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضي وقفا أو ابتداء ينبغي أن يعتمد الوقف عليه، بل ينبغي تحري المعنى الأتم والوقف الأوجه15.

إن العناية بعلم الوقف والابتداء مطلب ملح، وضرورة لا مناص منها لدارس القرآن ومستنبط معانيه، إذ بإتقانه يتوصل إلى كنه الخطاب القرآني، وقد كان هذا الوعي متأصلا لدى علمائنا، إذ "اشترط كثير من أئمة الخلف على المجيز أن لا يجيز أحدا إلا بعد معرفته الوقف والابتداء16، واعتبروا "من لم يعرف الفرق بين ما وصله الله جل وعز في كتابه وبين ما فصله، لم يحل له أن يتكلم في القطع والائتناف"17.

وقد نال مبحث الوقف حظا وافرا من الاهتمام مقارنة بمبحث الابتداء، لانفراده بمهام جليلة وأدوار متعددة، الأمر الذي جعل العلماء يقدمون الوقف على الابتداء، وإن كان مؤخرا عنه في الرتبة، يقول القسطلاني (ت923ه):" لأن كلامهم في الوقف الناشئ عن الوصل، والابتداء الناشئ عن الوقف، وهو بعده، وأما الابتداء الحقيقي فسابق على الوقف الحقيقي، فلا كلام فيهما، إذ لا يكونان إلا كاملين، كأول السورة أو الخُطبة والقصيدة وأواخرها"18.

إن مراعاة الوقوف الحسنة من أهم متطلبات الفصاحة؛ لأنها "حلية التلاوة، وتحلية الدراية، وزينة القارئ، وبلاغة التالي، وفهم المستمع وفخر للعالم"19. ولا تقتصر مهمة الوقف في الإبانة عن المعاني فقط، بل تسند إليه مهمات أخرى من قبيل الإسهام في إغناء البنية الإيقاعية التي تستطيبها النفس الإنسانية، وتستلذها الآذان الواعية، بحيث تتضافر البنية الإيقاعية مع الجانب الدلالي لخدمة المعنى العام للنص المدروس، وهذا ما سنوضحه فيما يأتي.

3- علاقة إيقاع الفواصل القرآنية بالوقف

وسمت الثقافة العربية بكونها ثقافة شفهية، ما جعل علماء العرب القدماء يسعون إلى تحسين العملية الإبلاغية، فاهتموا بالإيقاع أيما اهتمام، وازدادت عنايتهم به بعد نزول القرآن الكريم الذي أسر بإيقاعه القلوب، وسيطر على مجامعها. يقول محمد كريم الكواز: "وقد كان القرآن الكريم وقت نزوله، وما يزال يأخذ بالألباب من خلال صوته، ويمس شغاف القلوب من خلال جرسه، وكان ذلك باعثا للكثير من الناس على الإيمان به والتصديق بما حواه"20.

وتمثل الفاصلة القرآنية أحد الجوانب الفاعلة في تشكيل إيقاعية القرآن الكريم. يقول أحمد البايبي: "والحق أن القرآن نص موزون، ولكن له وزن خاص، أعطته الفاصلة بأبعادها الإيقاعية المتنوعة جمالا إيقاعيا مؤثرا، جعلهم يشبهونها بموسيقى قوافي الشعر"21، ويؤكد أحمد أبو زيد كلام البايبي بقوله: "والحق أن قيمة الفاصلة في بلاغة النظم القرآني وحلاوة إيقاعه لا تقبل المراء، وما كان للقرآن يحافظ عليها، ويختارها بعناية، فيأتي بها متمكنة في موضعها مستقرة في نسقها، لو لم يكن لها شأن كبير في بلاغته، وتحقيق أهدافه"22.

ولا يمكن الحديث عن الفواصل القرآنية بمعزل عن الوقف(pause)؛ لكونه هو الذي يبرز الفواصل ويظهرها، لأنه "يشكل بنية إيقاعية وأنه ضابط إيقاعي وتمثل الفاصلة النمط الإيقاعي الذي تتضح من خلال هذه الصلة في صورتها الناصعة؛ فلا حديث عن هذا النمط الإيقاعي إلا من خلال الوقف"23.

ولقد استوقفت شدة الصلة بين الوقف والإيقاع العديد من الدارسين القدماء والمحدثين؛ فالبايبي يرى أن "الوقف ضابط إيقاعي، خاصة في إيقاع الفاصلة؛ إذ لا فاصلة بدون وقف فهو يلازمها ويبرزها، وبه لا يختل

الإيقاع القائم عليها"24. وإلى ذات الأمر أشار مبارك حنون، يقول: "فبالوقف، إذن، تظهر الفواصل وتبرز وتتقوى وتصعد (...) حتى إنه قد يكون بإمكاننا القول بأن الوقف قد صار ملمحا للفاصلة لا ينفك عنها ولا تنفك عنه"25. والجدير بالذكر أن صلة الفاصلة بالوقف في القرآن ليست وليدة العصر الحديث، وإنما أدركها العلماء منذ القديم؛ فالزركشي مثلا يؤكد أن "مبنى الفواصل على الوقف"26 وعليه لا فواصل بدون مراعاة الوقوف. ومن ثمة فالوقف هو ما يكتسب الفواصل القرآنية قوتها الإيقاعية، ورونقها الجمالي، فأضحت "من أهم مصادر الإيقاع في الخطاب القرآني، ومن أبرز ملامحه الصوتية المؤدية إلى تحقيق التناظر والتوازي والتناسق"27.

ومما لا مراء فيه، أن للوقف دورا مهما في تحقيق البعد الإيقاعي للفواصل القرآنية، فلولاه لا انتفت خاصية الانتظام التي تشكل أهم عنصر من عناصر الإيقاع القرآني.يقول البايبي: إن "أهم خاصية للإيقاع اللساني هي الانتظام والاطراد لوحدات البروز اللسانية على مسافات متقايسة تقايسا متساويا أو متقاربا لإحداث الانسجام، على مسافات غير متقايسة أحيانا لتفادي الرتابة وتحقيق التنويع"28؛ وعليه فتحقيق الإيقاع يتطلب "مجموعة من الأبعاد المتساوية في الزمن المسنونة في هرمية متزامنة ومن مجموعة من المقادير المتناسبة الأطراف المتقاربة في كمية الألفاظ والأصوات"29.

تدرك أهمية الإيقاع في العملية التواصلية من وجوه متعددة، ومن أبرزها استحباب خرق صور تركيبية طلبا لإضفاء التوازن وإشاعته على النصوص الإبداعية، بيد أن هذا الجانب لم يدرك في النصوص الإبداعية البشرية بالكيفية والجودة التي جاء بها في القرآن الكريم الذي مثل أجمل نظم وأبدع تركيب. يقول أبو منصور الثعالبي(429ه):"العرب تزيد وتحذف حفظا للتوازن وإيثارا له،أما الزيادة فكما قال تعالى:

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) [الأحزاب: 10]، وكما قال (فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)[الأحزاب: 67] وأما الحذف فكما قال جل اسمه (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)[الفجر: 4] وقال (الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) [الرعد:9] و(يَوْمَ التَّنَادِ) [غافر:32] و(يَوْمَ التَّلَاقِ)[غافر:15]"30.

إن الاحتفاء بإيقاعية الفواصل لا يعني أن الخطاب القرآني يضحي بالمعنى من أجل الشكل، وأن الفاصلة يؤتى بها لمجرد الملاءمة الصوتية والانسجام الموسيقي، وإنما يحصل ذلك كله في القرآن متناغما منسجما بين إيقاع الفاصلة والمعنى الذي سيقت من أجله، فترى: "سجعات القرآن نازلة في مواضعها؛ ملائمة لمواقعها، بريئة من التكلف، تتبع فيها الألفاظ المعاني، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع"31. ويضيف أحمد أحمد بدوي واصفا شدة ذلك التعلق والارتباط بينهما قائلا: "وتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم"32.

إجمالا إن للإيقاع أهميته البالغة في توجيه العملية التواصلية، وتمثل الفواصل القرآنية وجها من الوجوه البارزة المشكلة للإيقاع القرآني، والتي لا تكتمل وظائفها الجمالية وغاياتها الدلالية إلا بمراعاة مواضع الوقوف، وعليه فالوقف ينفرد بمزية إظهار الفواصل ويسهم في الإبانة عن مقصد الخطاب القرآني.

4- الوقف في اللسانيات الكلاسيكية والحديثة

أ- الوقف في اللسانيات الكلاسيكية

لم تستفد اللسانيات الكلاسيكية من جهود علماء العربية في دراساتهم لمبحث الوقف (pause) تنظيرا وتطبيقا، بل على النقيض من ذلك تجاهل منظروها من البنيويين والتوليديين الكلاسيكيين أهميته، شأنه في ذلك شأن باقي الظواهر التطريزية (la phonologie prosodique) في توجيه دلالات الخطاب وتأويل مقاصده ومراميه. وركزوا جهودهم في دراساتهم للغة على مقاربة الجوانب التركيبية تركيزا حدّ "من الحضور الصواتي الذي لم يعد سوى خيالات باهتة للتركيب"33.

إن الاعتماد على الخيار الانتقائي من قبل اللسانيين الكلاسيكيين؛ أي التركيز على الجانب التركيبي لم يسهم في تقدم الدراسة اللغوية وتطورها؛ لأنهم اعتبروا العناصر الفونيمية أو القطعية هي بؤرة التحليل اللساني، وأغفلوا مزية الظواهر المصاحبة (paralinguistic)، فبات تصورهم للغة حسب مبارك حنون "تصورا انتقائيا يقوم على اعتبار العناصر الفونيمية أو القطعية هي القابلة، وحدها، لأن تنسب انتسابا كليا إلى التحليل اللساني"34، وعليه فالتمثيل الفونولوجي، إذن، "تمثيل فونيمي في جوهره، تمثيل يتحكم فيه الفونيم الذي يحدد الوضع اللساني للظواهر التطريزية التي توضع فوق مجموعات قطعية أو فوق مقاطع على توالي صوامت ومصوتات"35.

لقد أضحت الظواهر التطريزية لدى اللسانيين الكلاسيكيين تؤدي وظيفة هامشية36، مما جعلها تعد من عناصر التواصل الإضافية37؛ لأنها لا تعدو أن تكون حسب (crystal) سوى ما تبقى من الفونولوجيا القطعية؛ أي ما يبقى بعد أن يكون المرء قد درس النسق الصوتي المصوتي/ الصامتي/ المقطعي38، ولهذا الأسباب وغيرها "ظلت الوقائع التطريزية هامشية لم تستطع النظريات اللسانية احتواءها بنفس الصرامة العلمية التي احتوت بها الظواهر القطعية"39.

إن تبعية الظواهر التطريزية للبنية التركيبية نهضت بها المدارس البنيوية وكرستها نظرية النحو التوليدي؛ ولعل الدافع إلى ذلك، يرجع إلى "انفتاح البنية التطريزية على مستويات لسانية متعددة يجعلها تخضع إلى بعض القيود التي تفرضها البنية التركيبية، وهذا الوضع أسسته وعمقته نظرية النحو التوليدي التي أكدت، دائما في نماذجها، على مركزية التركيب وتحكمه في مآل الظواهر الصوتية التطريزية. وقد تطور هذا التصور نحو تحكم من نوع آخر، إذ نجد عند نسبور وفوكل (1986) ونسبور (1988) أن التركيب يظل هو العنصر المحرك والمشغل للبنيات التطريزية"40.

ومجمل القول، إن الحديث عن وضع الظواهر التطريزية في اللسانيات الكلاسيكية بشكل عام، - ومنها الوقف - قد أملاه تهميش مبحث الوقف في تلك الحقبة،إذ لم يحظ بالعناية اللازمة والاهتمام اللائق به، لأن جهود

منظريها انصبت على دراسة جوانب ذات الصلة بالبنية التركيبية، ونظروا إلى الوقف باعتباره أثرا صوتيا للتركيب وتجسيدا فزيائيا له41.

ب- الوقف في اللسانيات الحديثة

إن هيمنة التصور التركيبي للغة لم يستمر طويلا، إذ سرعان ما أدرك الصواتيون الجدد محدودية هذا التوجه وعجزه عن تبليغ مقاصد الخطاب (discoure)، والتجأوا إلى مجال أوسع وأرحب كفيل بتجاوز نقائص التوجه الكلاسيكي؛ أطلقوا عليه اسم الظواهر التطريزية أو الظواهر الفوق ـــــــ قطعية. يقول (hockett) مبرزا الفرق بين الظواهر القطعية والفوق قطعية: " إن الملامح التي تعقب، بوضوح، بعضها البعض في تيار الكلام تسمى ملامح قطعية، أما تلك الملامح التي تمتد، بوضوح، إلى سلاسل من مجموعات القطعية المتعددة فهي ملامح فوق ـــ قطعية"42 .

وتتجلى أهمية الظواهر التطريزية في قدرتها على "تحويل الجملة من بناء تركيبي مجرد إلى بنية تطريزية إنجازية، فالتنغيم يقطع الملفوظ إلى مكونات تطريزية ذات خصائص نبرية معينة، ويحدد جهة الملفوظ ويسهم في الكشف عن بنيته الإخبارية التداولية"43. كما تعمل هذه الظواهر على نقل "العديد من الإخباريات المتنوعة التي تتصل بمستويات جد مختلفة، وأنها متعددة القيم الدلالية، وهذا مما يجعل وظائفها شديدة التنوع، فهي قد تكون إشارات تعبيرية عفوية، أو ردود فعل غريزية مثل الألم والفرح والقلق، وقد تكون علامات تعبيرية قصدية تمثل أنماطا أسلوبية وانفعالية في الأصل قد انتهى بها الأمر إلى أن تندمج في اللغة"44. ويعزز هذا قول البابي: "إن ملامح التطريز تؤثر في الأصوات الكلامية وتسهم في بنينة الأقوال، ويدرج تحتها، في الغالب التنغيم Intonation، والنغم tone، والنبر stress، والإيقاع rhythm، والطول long، والوقف "pause 45

إن الأهمية التي خصت بها الظواهر التطريزية، لم تخص عنصرا من عناصرها دون الآخر، بل خصت جميعها؛ وإن تفاوتت درجة أهميتها، إلا أن مبحث الوقف من أهم المباحث التي حظيت بعناية الصواتيين المتأخرين، لما له من أدوار جليلة ومهام عظيمة في بنينة الخطاب. وقد تنبه مجموعة من الدارسين إلى هذا الأمر. يقول السعران: "وجاء علم اللغة الحديث، فنظر إلى الوقف على أنه أحد العناصر المرفولوجية التي تؤدي وظيفة مهمة على مستوى التشكيل الصوتي والصرفي، والنحوي والدلالي"46. كما يؤدي مهمة رفع الالتباس الذي قد يكتنف تراكيب الكلام، وذلك لكونه" ضابطا تطريزيا للعلاقات التركيبية، ويتجلى ضبطه التطريزي هذا في قيامه بمهمة رفع الالتباس والغموض التركيبيين الناتجين عن امتداد العلاقات التركيبية والوظائف النحوية وانتشارهما على أوسع مدى"47. وذهب محمد يوسف حبلص مذهبا أعمق، حيث جعل الوقف لا يقل أهمية عن قرينة العلامة الإعرابية في تبيين المعاني وإظهارها، يقول: إن الوقف "ذا قيمة كبرى في التنبيه إلى دلالة التركيب لا تقل أثرا عن قرينة العلامة الإعرابية والوظيفة النحوية"48.

تشير هذه النصوص إلى الأهمية الكبيرة التي يوليها الدرس اللساني الحديث لمبحث الوقف، إذ اعتبره من الموجهات الأساسية للجانبين الصوتي والدلالي في الخطاب.

إن إدراك اللسانيين المحدثين لقيمة الوقف في توجيه الدلالة لا يخص المستوى التنظيري فحسب، وإنما برهنوا من خلال مجموعة من النماذج التطبيقية مدى فاعليته في الإبانة عن مجموعة من الأبواب النحوية من قبيل النعت المقطوع والاختصاص، يقول حنون مبارك: "إننا نعتقد أن بعض الأبواب النحوية قد أسنَدَ وجودها الوقف، وأنه قد حان الوقت لإعادة تنظيم أبواب النحو"49. إن دعوة حنون نابعة من إيمانه بأنه "إذا كان الوصل يعقد بين المكونات علاقات نحوية معينة ويرجح تأويلات تركيبية ودلالية، فإن الوقف من جهته يعقد علاقات نحوية أخرى ليَؤْمنَ التركيب السليم وليصون الدلالة ويحصنها"50.

ويعد مبارك حنون وأحمد كشك من أبرز الدارسين المحدثين الذين أقروا تنظيرا وتطبيقا بتوجيه الوقف لأبواب نحوية. يقول أحمد كشك موضحا دور السكتة51 في تحديد أسلوب الاختصاص: "فحين يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم "نحن معاشر الأنبياء لا نورث" فإن السكتة الموجودة بعد الضمير "نحن" وبعد كلمة "الأنبياء" تبين بوضوح أن كلمة "معاشر"منصوبة على الاختصاص، ولو لم تكن موجودة لتوهمنا في هذه الكلمة الإخبار حين البدء وقبل أن نصل إلى النهاية"52.

إن الطرح الذي ندافع عنه في هذه الدراسة، "أهمية الوقف في توجيه الدلالة"، سبق لأستاذنا عبد الحميد زاهيد أن نبه إليه في معرض حديثه عن العلاقة الجدلية بين الظواهر التطريزية والمستوى الدلالي، إذ قال: "وتدخل الوقفة pause أيضا في هذه العلاقة الجدلية، فحضورها وغيابها يغير دلالة الجملة. ففي قولنا مثلا (ما شاء الله) بدون وقفة، معناها (الذي أراده الله). وتكون الجملة مثبتة. أما نطقنا للجملة نفسَها بوقفة، (ما شاء الله)، (ما+ وقفة+ شاء الله)، فيكون معناها أن الله لم يرد. وتكون الجملة منفية"53. وهذا دليل آخر يظهر قيمة الوقف في توجيه دلالة الكلام وتحديدها.

ومجمل القول إن الدرس اللساني الحديث أعاد الاعتبار إلى الظواهر التطريزية بصفة عامة، وإلى مبحث الوقف بصفة خاصة، إذ خلصه من الدور الثانوي الذي كرسته له اللسانيات الكلاسيكية، وأضحى يقوم بدور أساس ومتميز في بنينة الخطاب.

5- تطبيقات لعلاقة الوقف بالدلالة في القرآن

تبين مما سلف مدى وعي العلماء بأهمية الوقف(pause) في توجيه دلالات الخطاب منطوقا كان أم مكتوبا. بيد أن هذه الحقيقة تبرز بجلاء ووضوح في استقصاء بعض النماذج التطبيقية.

وسعيا إلى تحقيق هذا المقصد فقد تجنبنا كثرة تفريعات الوقف وتقسيماته؛ والتي تباينت بتباين آراء العلماء واختلاف تأويلاتهم للنص القرآني، وركزنا اهتمامنا على دراسة أنموذجين من الوقف اللازم، وهما كفيلان بإظهار أهميته في توجيه المعنى. واختيارنا لهذا القسم أنموذجا للتطبيق اقتضاه أثره البين في توجيه الدلالة مقارنة بالأقسام الأخرى؛ ومنها الوقف التام والحسن اللذان يحسن الوقف عليهما فقط؛ فما المقصود بالوقف اللازم؟ وما تجليات تأثير هذا النوع من الوقف على الدلالة؟

الوقف اللازم:

ويسمى أيضا بالواجب. وهو في اللغة من الملازمة للشيء والدوام عليه54. ويراد به في الاصطلاح: "ما لو وصل طرفاه غير المراد"55؛ وعليه فسلامة المعنى واستقامته في هذا النوع من الوقف لا تحصل بوصل الكلام، بل بمراعاة الوقف واحترامه لانتفاء التعلق بين أجزائه.

ولا يقصد باللازم أنه لازم شرعا؛ بحيث يستحق القارئ التواب على فعله، أو العقاب على تركه، بل لازم صناعي56؛ بمعنى أنه لازم لجودة التلاوة وإحكام الأداء، فالقراءة لا تكون جيدة الصنع محكمة النسج بديعة النسق إلا إذا روعيت فيها الوقوف57. ومن النماذج الشاهدة عليه في القرآن:

أ ــ النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ {آل عمران: 7}.

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن "في القرآن الكريم آيات محكمات هن أم الكتاب أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس"58.

بيد أن مناط اختلاف آراء العلماء وتبيان وجهات نظرهم انصبت على المَعْني أو المعنيين بتأويل متشابه القرآن، فذهبت فئة عريضة من قراء الأمة ومفسريها ونحوييها إلى ترجيح الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾. ومن ثمة إفراد الله تعالى بعلم تأويل متشابه آياته، وقال بهذا "ابن عباس وعائشة وابن مسعود وغيرهم من مذهب أبي حنيفة وأكثر أهل الحديث. وبه قال نافع والكسائي ويعقوب والفراء والأخفش وأبو حاتم وسواهم من أئمة العربية"59. ولو وصلوا الكلام لـــ"فهم أن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه كما يعلمه الله وهذا ليس بصحيح، بل المذهب أن شرط الإيمان بالقرآن العمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه"60.

أما الفئة الثانية: فعطفت قوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ بقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ واقتضى هذا العطف إشراك الراسخين في العلم مع الله في معرفة تأويل متشابه القرآن يقول الزمخشري: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ أي: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه، وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع"61.

وخلص الفخر الرازي إلى أن الوقف على قوله تعالى ﴿والراسخون في العلم﴾ ينتفي مع ذوق الفصاحة، يقول: "لو كان قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ معطوفا على قوله ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ لصار قوله ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ابتداء، وأنه بعيد عن ذوق الفصاحة، بل كان الأولى أن يقال: وهم يقولون آمنا به، أو يقال: ويقولون آمنا به"62.

ب ــ النموذج 2: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تمثل الآية الكريمة وجها من وجوه إعجاز النظم القرآني البديع والمتفرد؛ حيث سيقت تأكيدا وتأييدا بأن الله ناصر رسوله الكريم على أعداء الملة والدين. يقول ابن كثير: "يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعا، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين"63.

إن إدراك كنه ومغزى الآية الكريمة متوقف على مراعاة الوقف الصحيح، وذلك بالوقف على ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾؛ لأنه حسب القرطبي يمثل تمام الكلام؛ "أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال: ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده"64، وإلى نفس الرأي ذهب الطاهر بن عاشور (ت1973م) بقوله: "ويحسن الوقف على كلمة ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ لكي لا يتوهم بعض من يسمع جملة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ فيحسبه مقولا لقولهم فيتطلب لماذا يكون هذا القول سببا لحزن الرسول صلى الله عليه وسلم. وكيف يحزن الرسول صلى الله عليه وسلم من قولهم ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾"65، والراجحُ، أن جملة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ تعليل لدفع الحزن عنه، ولذلك فُصِلت عن جملة النهي"66.

يتبين من النموذجين الأهمية التي يكتسيها الوقف اللازم في الإبانة عن المعاني وإظهارها، وأن أي تحريف لمواضعه المحددة يذهب المقصد والهدف الذي أنزل من أجله الخطاب القرآني؛ ففي النموذج الأول عطف جملة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ على جملة ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾، حيث حكم بمشاركة الراسخين في العلم مع الله في معرفة تأويل متشابه القرآن، بينما الوقف على ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾، يفرد الحق سبحانه وتعالى بمعرفة تأويل متشابه آياته، أما وصل الكلام في النموذج الثاني: يوهم بأن المشركين هم القائلون ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أما الوقف على كلمة ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ فيبرز بأن الخطاب من الله إلى رسوله الكريم.

وخلاصة القول إن ظاهرة الوقف تعد من الظواهر الصوتية التي أولاها القدماء عناية خاصة تنظيرا وتطبيقا، وتوصلوا من خلال علم الوقف والابتداء إلى أهميتها في بنينة الخطاب. ولا يقتصر دورها في توضيح الدلالة فقط، بل تسهم في إظهار الفواصل القرآنية التي تضفي على النصوص موسيقية خاصة.

ولقد عانت ظاهرة الوقف من التهميش من قبل اللسانيين الكلاسيكيين الذين اعتبروها مجرد أثر صوتي للتركيب، بيد أن اللسانيين المحدثين أعادوا الاعتبار لهذه الظاهرة، وأسندوا إليها أدوارا تركيبية وصوتية ودلالية.

الهوامش:

---

[1] . معجم مقاييس اللغة: 136/6

[2] ــ لسان العرب، مادة وقف،4798/55

[3] ــ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: 939

[4] ــ لسان العرب: 55/ 4798، معجم التعريفات: 213،

[5] ــ العباب الزاخر واللباب الفاخر: 636

[6] ــ أساس البلاغة: 350

[7] ــ لطائف الإشارات:249

[8] ــ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: 24

[9] ــ النشر في القراءات العشر:1/ 189

[10] ــ جمال القراء وكمال الإقراء: 553

[11] ــ لطائف الإشارات: 249

[12] ــ كتاب الوقف والابتداء في كتاب الله: 374

[13] ــ نفسه: 346

[14] ــ البرهان في علوم القرآن، 214/1

[15] ــ النشر في القراءات العشر، 1/ 182

[16] ــ النشر في القراءات العشر: 1/ 177 ــ 178

[17] ــ القطع والائتناف: 21

[18] ــ لطائف الإشارات، 1/ 249

[19] ــ الوقف في كتاب الله عز وجل، الهذلي: 378

[20] ــ كلام الله الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية: 10

[21] ــ القضايا التطريزية : 202/2

[22] ــ التناسب البياني في القرآن: 352

[23] ــ القظايا التطريزية : 303/2

[24] ــ نفسه، 2/ 234

[25] ــ في بنية الوقف وبنية اللغة، 562/2 ، نقلا عن القضايا التطريزية، 194/2

[26] ــ البرهان في علوم القرآن، 63/1

[27] ــ جمالية الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: 320

[28] ــ القظايا التطريزية : 132/2

[29] ــ في بنية الوقف وبنية اللغة، 562/2 ــ 563 ، نقلا عن القضايا التطريزية، 194/2

[30] ــ فقه اللغة وسر العربية، 589/2

[31] ــ سجع القرآن فريد، أحمد الحوفي، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية: 96، ع28، رمضان 1391ه ــ 1971م. نقلا عن فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية: 51

[32] ــ من بلاغة القرآن: 65

[33] ــ في التنظيم الإيقاعي: 196

34 ــ في الصواتة الزمنية: 17

35 ــ في الصواتة الزمنية: 23

36 ــ نفسه: 16

37 ــ ــ Luchsinger ,R. and Arnold,GE(1968). P. 470 نقلا عن كتاب في الصواتة الزمنية: 18

38 ــ Crystal, D , (1979) .p. 33. نقلا نقلا عن كتاب في الصواتة الزمنية: 24

39 ــ الصواتة الزمنية: 16

40 ــ وضع البنية التطريزية وعلاقتها بمستويات تكوين الملفوظ: 213

41 ــ في التنظيم الإيقاعي: 16

42 ــ hockett , c .f. p. 131، نقلا عن كتاب في الصواتة الزمنية:21

43 ــ وضع البنية التطريزية وعلاقتها بمستويات تكوين الملفوظ: 223

44 ــ في الصواتة الزمنية: 20 ــ 21

45 ــ القضايا التطريزية في في القراءات القرآنية: 11/1

46 ــ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي344:

47 ــ في التنظيم الإيقاعي: 231

48 ــ أثر الوقف على الدلالة التركيبية: 186

49 ــ في التنظيم الإيقاعي: 208

50 ــ نفسه: 231

51 ــ يقول كمال بشر: " وهي في حقيقة الأمر لا تعني إلا مجرد تغيير مسيرة النطق بتغيير نغماته، إشعارا بأن ما يسبقها من الكلام مرتبط أشد ارتباط بما يلحقها ومتعلق به ومن ثم يسميها "وقفة أو سكتة معلقة" علم الأصوات: 557

52 ــ من وظائف الصوت اللغوي: 102

53 ــ نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية: 11

54 لسان العرب: 4028.

55 الإتقان في علوم القرآن: 234/1

56 ما يحسن فعله ويقبح عند علماء التجويد تركه.

57 الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم: 68.

58 تفسير القرآن العظيم، 104/2

59 النشر في القراءات: 179/1. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، 170/7. الجامع لأحكام القرآن، 392/3.

60 علل الوقوف: 361/1

61 الكشاف، 1/ 529.

62 مفاتيح الغيب، 7/ 171 ــ 172

63 تفسير القرآن العظيم، 686/3

64 الجامع لأحكام القرآن، 658/11

[65] التحرير والتنوير، 222/11

[66] روح المعاني، 221/11

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، رواية حفص.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 2428ه ــ 2007م.
- أثر الوقف على الدلالة التركيبية، محمد يوسف حبلص، دار الثقافة العربية، القاهرة، د.ط، 1414ه ــ 1993م.
- أساس البلاغة، الزمخشري، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط1، 1419ه ــ 1998م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط،1427ه ــ 2006م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ط، د.ت.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تعليقات أحمد شاكر وصالح العثيمن وآخرون، دار الآثار، القاهرة، ط1، 1430ه ــ 2009م.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، تح عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة ــ مصر، د.ط، دــــت.
- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي: أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، د.ط، د.ت.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مراجعة وتعليق محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، د.ط.
- جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، تح علي حسين البواب، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1408ه ــ 1987م.
- جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، صلاح ملا عزيز، دار الزمان، دمشق ــ سورية، ط1، 2010م.
- روح المعاني في تفسير السبع المثاني، الألوسي، تح السيد محمد السيد والسيد عمران، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار الفكر، القاهرة، د.ط، د.ت.
- العباب الزاخر واللباب الفاخر، الصنعاني، تح فير محمد حسن، المجمع العلمي العراقي، ط1، 1398ه ــ1987م.
- فقه اللغة وسر العربية، الثعالبي، تقديم وتعليق خالد فهمي، تصدير رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1418ه ــ 1998م.
- فواصل الآيات القرآنية دراسة بلاغية، السيد خضر السيد خضر، ككتبة الآداب، القاهرة،ط2، 2009م.
- في التنظيم الإيقاعي للغة العربية، مبارك حنون، دار الأمان، ط1، 1431ه ــ 2010م.
- في الصواتة الزمنية الوقف في اللسانيات الكلاسيكية، مبارك حنون، دار الأمان، الرباط، ط1، 1424ه ــ 2003م.
- علل الوقوف، السجاوندي، تح محمد بن عبد الله بن محمد العبيدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1427ه ــ 2006.
- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت.
- نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية دراسة صوتية، عبد الحميد زاهيد، دار وليلي، ط1، د.ت.
- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تقديم محمد الضباع، خرج أياته زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان
- كتاب التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، 1985م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكات، الرياض، ط1، 1418م ــ 1998م.
- الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السلام.

- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، نح عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط، د.ت.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان، ط2،1419ه ــ 1998م.
- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، الأشموني، تعليق أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط2، 1427ه ــ 2007م.
- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، د.ط، د، ت.
- من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، دار غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.
- وضع البنية التطريزية وعلاقتها بمستويات تكوين الملفوظ، مراد موهوب، مجلة كلية الآداب بني ملال، العدد6، 2003م.
- الوقف والابتداء في كتاب الله، لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي، دراسة وتحقيق، عامر أمين الددو، مجلة الشريعة والقانون، العدد الرابع والثلاثون، ربيع الثاني 1429ه ــ أبريل 2008م.